سيد درويش

فنان الشعب ٧٩ عاماً على رحيله

تمر بنا هذه الأيام الذكرى التاسعة والسبعين لفنان الشعب «سيد درويش» وكلما مرت بى هذه الذكرى، قفزت إلى ذاكرتى أغنية كثيراً ما رددتها وأنا صغير لفرط محبتى لها، وبدون أن أدرك معناها، ولما كبرت وأدركت معناها جيداً، عرفت أنها من كلمات الشاعر الغنائى بديع خيري، وأداء الشيخ سيد درويش، أحببتها أكثر، وأصبحت الآن أرددها أكثر وأكثر لأستحث نفسى أولا، على النهوض من هذا الثبات المميت الذى جثم علينا، وكبلنا وألجم ألسنتنا، وما أحوجنا الآن إلى أن نردد هذه الأغنية معه، والتى يقول فى مطلعها:

«قوم يا مصرى مصر أمك بتناديك

خُذ بنصرى نصرى دين واجب عليك»

عندما تستمع إلى هذه الأغنية بأداء سيد درويش، تلحظ على الفور عبقريته وذكاءه وإيمانه العميق الراسخ برسالته الوطنية، وقدرته الفذة على اختيار الكلمات المعبرة عن هذه

الرسالة، الذى كان حريصاً أن تصل لكل الناس، فى كل مكان من أرض مصر التى عشقها وأخلص لها بكل ذرة فى كيانه.

نشأ سيد درويش وترعرع فى أحد أحياء الإسكندرية الشعبية، وهو حى «كوم الدكة» لأب يعمل نجاراً بسيطاً، وقد أصر والده على أن يلحقه بالتعليم الأزهري، ليصبح عالماً جليلاً، ولكن لم يهمل القدر والده لكى يراه – كما أراد – ولم يطق سيد هذه الدراسة، وسرعان ما بدل زيه الأزهرى بالزى الإفرنجي، وبحسه الفني، وموهبته المبكرة بدأ يهتم بالغناء والطرب وترديد الأناشيد، وحفظ الكثير من الأغانى فى ذلك الوقت.

وقد رأى سيد درويش، بعين رأسه ما كان يحدث لأبناء الإسكندرية تحت وطأة الاحتلال الإنجليزي، من تعذيب وامتهان لآدمية الإنسان، وخصوصاً أبناء حى (كوم الدكة) الذى نشأ فيه، فكان يوجد بالقرب منه معسكر للإنجليز، فحمل لهذا الاحتلال أقصى مشاعر الكراهية لهذا الدخيل، الذى ينغص أمن وطمأنينة البسطاء من الشعب، بل ويقض مضاجعهم، ويمعن فى إذلالهم بدون وجه حق.

عمل سيد درويش بعد وفاة والده أعمالاً كثيرة إلى أن عمل عاملاً للبناء وكان يغنى أثناء العمل لتسرية العمال والتخفيف عن زملائه، وقد لاحظ صاحب العمل أن هذا الغناء يزيد من إقبال العمال على العمل، ويزيد من إنتاجهم، فطلب

من الشيخ سيد أن يتفرغ للغناء لزملائه فى العمل فقط.

ذاع صيت سيد درويش فى الإسكندرية كلها، بعد أن عاد – مرة أخرى – لارتداء العمة والجبة والقفطان، يغنى فى الموالد والأفراح وفى المقاهى على شاطئ البحر، ووصل صيته إلى القاهرة، والتحق فى هذه الفترة بفرقة «عطا الله» التمثيلية، وسافر معها إلى لبنان وتنقل خلالها بين لبنان وسوريا وفلسطين، وأتيح له استكمال دراسته الموسيقية، وتتلمذ على يد الشيخ «عثمان الموصلي» الذى يعد من أساطين الغناء العربى فى ذلك الوقت.

ولما كانت البلاد تئن تحت وطأة الاحتلال والأزمة الاقتصادية تتفاقم بسبب الحرب والغلاء وتطحن الطبقات الشعبية والأحكام العرفية تخنق حريات المواطنين، وجنود الاحتلال تخنق الجماهير، أصر سيد درويش على الانتقال إلى القاهرة نهائياً، فيلتقى هناك بمجتمع الأدباء والفنانين الذين ارتبط بهم مثل: جورج أبيض، والريحاني، وعلى الكسار، وتوفيق الحكيم، وعزيز عيد، وزكريا أحمد، والقصبجي، كما تعرف على جيل المثقفين الديمقراطيين المهمومين بقضية الوطن ومشكلات المجتمع مثل: يونس القاضي، بديع خيري، بيرم التونسي، واتصل بالحركة الوطنية وأصبح جزءا منها.

ولما اندلعت ثورة ١٩ ضد الاحتلال البريطانى من أجل الاستقلال، كان سيد درويش يوجد حيث توجد الجماهير فى قلب المظاهرات، يقف مرفوع الصدر داخل العربة الحنطور، وبجواره بديع خيري، وهو يهتف بصوته الجهورى بحياة الوطن والشعب والاستقلال التام أو الموت الزؤام، فيلهب حماس الجماهير من المتظاهرين، كانت أغانى وألحان سيد درويش بمثابة منشور سياسى يغنيها الناس فور انتهائه من تلحينها، فكان بمثابة صحوة الضمير الوطنى الذى يحرك الشارع المصرى آنذاك.

كانت وفاة سيد درويش فجر يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٣ مفاجأة غير متوقعة، مات فى قمة مجده الفني، وهو ابن الثانية والثلاثين من عمره، وأثناء ذهابه إلى الإسكندرية يشرف على تحفيظ أطفال المدارس النشيدين الوطنيين اللذين أعدهما لاستقبال سعد زغلول من المنفى وهما: «مصرنا، وطننا، سعدنا و»بلادى بلادي» فى نفس ليلة استقبال سعد ورفاقه العائدين من المنفي، ولكنه أصيب فى هذه الليلة بأزمة قلبية توفى على أثرها فى منزل شقيقته، ليدفن فى ثراها الندي، ولم يدر أحد إلى وفاته فى غمرة الحماس الشعبى الجارف لاستقبال زعيم الأمة، وسار فى جنازته عدد قليل من أقاربه ومعارفه.

ومـوت سـيد درويـش يشـبه إلى حـد كبـير مـوت الكاتـب الروسـى الشـهير «هتشـيكوف» «أبـو القصـة القصـيرة» – كمـا كان يطلـق عليـه – فقـد مـات فـى صمـت – هـو الآخـر – فقد صـادف يـوم موتـه أن مـات الإمبراطـور الروسـي، فانفضـت النـاس إلى جنـازة الإمبراطـور، ولم يمـش فـى جنازتـه سـوى خمسـة أفـراد مـن أصدقائـه، فهـذا حـال العظمـاء دائمـا يموتـون فـى صمـت ولكـن تظـل أعمالهـم حيـة مـا دامـت الحيـاة.

★ نشرفى جريدة القاهرة فى ٩ أكتوبر٢٠٠٢

obeikandl.com